«٨»

عبدالله بن عبدالرحمن باوزير

في عاصمة الرشيد - الرحيل عن العراق - هجرة آل الوزير - الشيرازي الحضرمي - أبو بكر بن محمد - صاحب الترجمة - ابنه عمر - مؤسس غيل باوزير - عبدالرحيم صاحب الطرائق

❖ في عاصمة الرشيد:

العلامة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن باوزير أحد الرجال البارزين من أسرة حضرمية كبيرة لها تاريخها المجيد وآثارها الواضحة في مجريات الأحوال في البلاد الحضرمية في مختلف العهود، ولهذه الأسرة الكبيرة قصة تبتدئ في بغداد عاصمة الخلفاء من بني العباس، وتتوالى وقائعها وحوادثها مسرعة في البصرة والكوفة وبلاد فارس وخراسان وتركستان، ثم في مكة والمدينة المنورة وجُدَّة من أرض الحجاز، حتى إذا كان الجزء الأخير والخاص منها بحضرموت أخذت وقائع القصة وحوادثها تسير في بطء وفي شيء من الإسهاب والتفصيل يصرفنا عنه ضيق المقام.

في نهاية القرن الخامس الهجري أو بداية السادس ولد في بغداد يعقوب بن يوسف بن علي بن طراد، ومات أبوه يوسف وهو طفل لم يبلغ الحلم، فكفله جده علي بن طراد نقيب العباسيين ووزير الخليفتين المسترشد والمقتفي، وأشرف على تربيته وتعليمه حتى نال حظاً كبيراً من العلم والمعرفة، وكان من بين أساتذته أبو الفتوح الغزالي أخو حجة

الإسلام صاحب الإحياء والإمام السهروردي وأحمد الرفاعي وغيرهم من كبار رجال العلم والتصوف.

ثم أذن له جده في السفر إلى البصرة والكوفة والحجاز فأخذ عن علمائها وعاد إلى العراق مقيماً في بغداد الجديدة للتدريس ونشر العلم مبتعداً عن قصور الخلفاء والوزراء، ناقماً على ما آلت إليه الخلافة من ضعف وفساد وتزعزع واضطراب، واشتدت نقمته وتضاعف قلقه وتبرمه بالحالة عندما قبض الخليفة المسترشد على جَدّهِ وأودعه السجن، فرحل إلى بغداد القديمة واختفى هناك، ولما عاد جدّه وقبل وزارة الخليفة المقتفي سنة ٥٣١هـ أتى إليه ووعظه وحذّره عاقبة الاتصال بالخلفاء المسلوبي الإرادة المشتغلين بملذاتهم عن مهام الخلافة وواجباتها، فلم يلتفت إليه فتركه وشأنه، وقد صح ما توقعه حفيد الوزير الكبير فتغير المقتفي على جدّه وهمّ بالقبض عليه فاحتمى منه في دار السلطان مسعود ثم لزم داره إلى أن مات سنة ٥٣٨هـ.

❖ الرحيل عن العراق:

وضاق يعقوب ذرعاً ببغداد بعد وفاة جده ولم يستطع صبراً على الإقامة بها، واتفق مع أبنائه الثلاثة على الرحيل عنها فسار ابنه عمر إلى بخارى من أرض تركستان، وتوجه عبدالله إلى شيراز قصبة فارس حيث تزوج بكريمة أحد العباسيين هناك فأنجبت له ابنه سالماً، أما هو فقد سافر إلى خراسان ومعه ابنه الثالث يوسف، ولكنهم عاودهم الحنين إلى العراق بعد سنوات قضوها في بلاد الأعاجم فعادوا إلى وطنهم سنة ٥٤٩هـ.

ولم تكد تستقر أقدامهم في بغداد حتى أدركوا أنه لن يطيب لهم المقام في بلد اضطرب فيه الأمن واختلت فيه شؤون الحكم وتكاثرت فيه الفتن فصمموا على الهجرة، ويقال بأن بعض أصدقائهم أشار عليهم بالهجرة إلى أطراف اليمن ومن بينهم العلامة الكبير الشيخ عبدالقادر الجيلاني أحد كبار

رجال التصوف في ذلك العهد، فقد قال لهم: إن أطراف اليمن أسلم للدين وأبعد عن الفتنة وأخفّ للمعيشة.

❖ هجرة آل وزير:

كذلك كان يعرف أهل هذا البيت بآل الوزير، فقد كان رئيس هذه الأسرة علي بن طراد وزير الخليفتين المسترشد والمقتفي، قال الهمداني: لم يل الوزارة عباسي سواه، وقال ابن كثير: لا يعرف أحد من العباسيين باشر الوزارة غيره، قال الذهبي: كان صدراً مهيباً نبيلاً كامل السؤدد، دقيق الفهم، بعيد النظر، ذا رأي وإقدام، فمن أجل ذلك دعيت هذه الأسرة بآل الوزير كما هو ظاهر.

هاجر آل الوزير من بغداد خفية متسترين قاصدين الحجاز لأداء فريضة الحج، فلما قضوا مناسكهم وزاروا المدينة المنورة اتجهوا إلى جُدَّة حيث ركبوا سفينة شراعية كانت مسافرة إلى بلدان المحيط الهندي وبحر العرب، وشعر شيخ الأسرة يعقوب بن يوسف وهو في البحر بانحراف في صحته لازمه واشتدَّ به حتى حاذت السفينة ساحل حضرموت فاختار أن ينزل في المكلا بجانب الكثيب الأبيض، وكانت قرية صغيرة لا توجد بها سوى أكواخ الصيادين المقيمين بها.

وأحس الشيخ بدنو أجله فجمع أبناءه الثلاثة وحفيده سالماً وتحدث إليهم طويلاً، وأوصاهم بالتمسك بالتقوى والزهد والاجتهاد في طلب العلم ونشره والصبر على المشقات في الحياة ولزوم الاستقامة، وحذرهم من الكسل والكبر والعجب وطلب الشهرة، ثم أدركته الوفاة فقضى نحبه سنة ٥٥٣هـ، ودفن في الكثيب المعروف الآن في العاصمة بتربة يعقوب، وضريحه مشهور يقصد بالزيارة حتى الآن، وعليه قبة مرتفعة.

ولم تكن المكلا في ذلك العهد بدار إقامة لمثل آل الوزير فارتحلوا عنها إلى الشحر، وكانت إذ ذاك أكبر وأصلح مدينة على الساحل، فأقاموا

بها واستوطنوها وتصدوا فيها للتدريس ونشر العلم ونفع الناس، فالتفَّ حولهم الأهالي وأكرموا نزلهم لما عرفوا به من كرم الأخلاق وحسن السيرة.

وبينما كان يوسف بن يعقوب في أرض حجر يعلِّم الناس ويدعوهم إلى الله أدركته المنية فمات وقبر هناك، ومات أخوه عمر بعد برهة وجيزة فدفن بالخور غربي مدينة الشحر، واعتصم أخوهما عبدالله بالصبر لفقدهما، ووجد في الانصراف إلى تربية ابنه سالم والاشتغال بتعليمه بعض السلوى عن فراق أخويه وعما كان يشعر به من آلام الغربة.

❖ الشيرازي الحضرمي:

قلنا: إن عبدالله بن يعقوب عندما كان بشيراز من أرض فارس تزوج كريمة أحد أبناء عمومته من العباسيين ورزق منها بولد هو سالم بن عبدالله الذي قضت الأقدار بأن يولد في شيراز من عائلة بغدادية ثم يقضي شبابه وبقية حياته لا في العراق ولا في بلاد فارس ولكن في حضرموت موطن عاد وبلاد حمير وكندة.

أتم سالم بن عبدالله تعليمه في الشحر تحت إشراف والده، ثم أخذ يتنقل بإشارة منه بين البادية يعلمهم ويصلح ذات بينهم، وقد دفعه اختلاطه بالبدو إلى أن يتزوج بنت أحد رؤسائهم في قرية «عرف» وهي جميلة بنت أحمد بن علي رئيس قبيلة المسيليين التي لم تلبث أن أنجبت له محمد بن سالم الجد الأعلى لآل باوزير المعروف الآن بمولى عرف؛ لأنه عاش ودفن هناك.

ومحمد - مولى عرف - هذا هو الوارث الوحيد في حضرموت لأسرة آل الوزير المهاجرة من العراق، والعباسي الأول الذي ولد بحضرموت من هذه العائلة، فقد توفي أخوا جده يوسف وعمر دون عقب وتوفي جده عبدالله بالشحر عن والده سالم فقط الذي مات بالجويب الواقعة بالقرب من

حورة، ولذلك اعتبر محمد بن سالم الجد الأول لآل باوزير، وكان أحد كبار رجال التصوف في القرن السابع الهجري ومن أقران الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي والشيخ سعيد بن عيسى العمودي، وله بهما صلة وثيقة، وقد توفي عن ثلاثة من الولد هم: أبو بكر وسعيد وعمر، وهذا الأخير هو والد الشيخ عبدالرحيم بن عمر مؤسس مدينة غيل باوزير.

وقد رأيت في رسالة خطية قديمة لدى أحد المشايخ في حورة أن من بين أساتذة الشيخ محمد بن سالم - مولى عرف - العلامة الإمام محمد بن علي صاحب مرباط، والشيخ أحمد الهدهدي، والشيخ أحمد البطين، والعلامة الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي بزبيد في جملة من علماء اليمن، كما أخذ عن والده سالم وجده عبدالله بن يعقوب.

أما من أخذ عن الشيخ محمد بن سالم فقد ذكرت منهم هذه الرسالة: الشيخ علي بن سلم الحضرمي، والإمام الفقيه العلامة محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي الحب التريمي، والشيخ سعد بن علي الظفاري، والفقيه المقدم محمد بن علوي باعلوي، والشيخ سفيان اليمني، والشيخ أحمد بن الجعد، والشيخ سعيد بن عيسى العمودي، والشيخ سعيد بن عمر بلحاف، والشيخ عبدالله بن محمد باعباد وغيرهم.

وتقول هذه الرسالة: إن الشيخ محمد بن سالم تزوج في حورة بنت أستاذه العلامة الشيخ أحمد البطين بامزاحم باجابر، فولدت له ابنه أبا بكر، أما ولداه الآخران فهما من زوجة أخرى.

❖ أبو بكر بن محمد:

ولد ونشأ في حورة بين أخواله آل باجابر ودرس على أبيه محمد بن سالم - مولى عرف - علوم الشريعة والطريقة، ثم سار إلى اليمن واجتمع بمشايخ كثيرين منهم: الشيخ محمد بن حسين البجلي، والشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي، وله معهما الصحبة الأكيدة والأخوة الرشيدة، وذهب

إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج والزيارة، ثم لطلب العلم والاجتماع بالعلماء، وقيل إنه بقي يتردد بين الحرمين الشريفين للدراسة ما يقرب من أربع وثلاثين سنة حتى أخذ من جميع العلوم بالحظ الأوفى.

ولما عاد إلى وطنه مسقط رأسه حوْرَة وعكف على العبادة ونشر العلم والتدريس والتذكير بالله والدعوة إلى الله، وأقبل الناس على الاستفادة منه حتى تخرج على يديه وانتفع به خلق كثير، وكان إلى جانب نشاطه الديني والثقافي ذا بسطة في الجاه والمال استغلهما في الإحسان إلى الفقراء ومساعدة المحتاجين وإكرام الضعيف وصلة الأرحام، وقد اشترى الأطيان الواسعة والنخيل والبيوت، وحفر الآبار لينتفع بمائها الناس، وبنى مسجده المعروف الذي هو الآن جامع حورة، ثم تصدق بجميع ما يملكه من عقار وقفاً مؤبداً بعضه على مصالح المسجد والبعض الآخر للضيافة وإصلاح الآبار، فكان كل غريب ينزل بحورة يجد من وقف الشيخ أبي بكر نُزُلاً يؤويه وطعاماً يقدم إليه في وجبات محدودة، ولا تزال هذه الأوقاف موجودة حتى الآن، وإن كانت في حاجة إلى مزيد من الحفظ والعناية.

ولما كلمه أخواله آل باجابر في ذلك قائلين له: كيف تصدقت بجميع مالك؟ أتريد أن تترك ورثتك عالة على الناس، هلا تركت لهم ما يكفيهم، قال: تركت لهم نِشْر المال وفُخْذ النخل وقسمهم من العطب يكفيهم ستر العورة، وقال: هذا يكفيهم إذا اتقوا الله وصدقوا في معاملته.

وكان الشيخ أبو بكر يحتفظ بمكتبة كبيرة عامرة بالكتب في مختلف العلوم والفنون، وقد احتفظ بها وزاد عليها ابنه عبدالرحمن وأحفاده من بعده، وكان عبدالرحمن بن أبي بكر هذا قوي الذاكرة سريع الحفظ، فكان يحفظ المحرر للرافعي وكثيراً من كتب الحديث، وله مشاركة في علوم الأدب والتفسير والمنطق حتى قيل إن والده قال عنه: لو عاش عبدالرحمن طويلاً لكان مجدّداً للمذهب، فمات - رحمه الله - في حياة والده، وكانت

زوجته حاملاً فوضعت بعد وفاته ولداً ذكراً سماه والده عبدالرحمن بن عبدالرحمن، وهو والد صاحب الترجمة الذي عقدنا هذا الفصل لذكر جانب من سيرته وتاريخه.

❖ صاحب الترجمة:

هو عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سالم، ولد بحورة ولم أقف على تاريخ ولادته، ولكن من المؤكد أنه عاش في أول القرن التاسع الهجري وآخر القرن الثامن، فقد ثبت أنه لزم وصحب كثيراً من العلماء كلهم عاشوا في هذين القرنين.

بدأ دراسته الدينية واللغوية في حورة على والده وأعمامه، ثم رحل للاستزادة من العلم إلى اليمن والحرمين الشريفين، حيث لقي وأخذ عن جماعة كبيرة من مشاهير علماء اليمن والحجاز، كما أخذ عن عدد من أقطاب الثقافة الإسلامية في العالم العربي ممن يردون إلى الحجاز أثناء موسم الحج.

وتذكر الرسالة التي اعتمدت عليها في بعض معلومات هذه الترجمة من أساتذة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن في الحجاز الإمام عبدالله بن أسعد اليافعي اليمني ثم المكي، والإمام المربي جمال الدين محمد بن سعيد كبن الطبري القرشي، والشيخ محمد بن إبراهيم بن أحمد بن عبدالوهاب، وأخاه عبدالواحد، وفقيه المدينة ومحدثها أبا بكر المراغي، وحافظ مكة الإمام محمد بن ظهيرة، كما تذكر منهم الشهاب ابن العربي، وتاج الدين السبكي، والجلال البلقيني، والجلال الإسنوي، وذلك في زمن الحج، وكذلك العلامة تقي الدين الحصني، شارح أبي شجاع، والشمس البرماوي، والإمام أحمد بن العماد، والشيخ الكازروني عالم المدينة وغير هؤلاء من العلماء الأعلام.

أما من أخذ عنهم من علماء اليمن فمنهم: شرف الدين بن الصيف

اليمني، وشرف الدين المقري صاحب عنوان الشرف، وجمال الدين الناشري، والعلامة مسعود بن سعد باشكيل وغيرهم.

وللشيخ عبدالله بن عبدالرحمن - صاحب الترجمة - رسالة جمع فيها مشايخه الذين أخذ عنهم وأسانيد إجازاتهم له المتصلة بالإمام الشافعي وتلميذيه المزني والربيع، كما جمع فيها أسانيد مشايخه في علم الحديث المتصلة برسول الله ﷺ.

وقد كانت رحلاته الكثيرة إلى الخارج لطلب العلم ولقاء العلماء وقراءاته العديدة في مختلف العلوم والفنون، وتوفر الكتب لديه في مكتبة أجداده بحورة كل ذلك كان من بين الأسباب لغزارة علمه وتوسيع أفقه الثقافي ومشاركته في علوم الشريعة والأدب والتاريخ واللغة والمنطق وغيرها، وقد ذكرت الرسالة التي أشرت إليها سابقاً مجموعة كبيرة من الكتب التي قرأها صاحب الترجمة في مقدمتها كتب الأئمة أبي إسحق والرافعي والنووي والغزالي والسهروردي في الفقه والتصوف، كما ذكرت طائفة أخرى من كتب التفسير والحديث لا حاجة لذكرها هنا.

ولما عاد إلى حورة من رحلاته العلمية تفرغ لنشر العلم والتذكير بالله والاتصال بعلماء القطر الحضرمي وصالحيه، وكانت له زيارات متعددة إلى تريم والشحر وغيل باوزير وغيرها من مدن البلاد الحضرمية وقراها، وكانت له صلة صهارة بالعلامة الكبير السيد عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف، فقد تزوج المحضار أخت صاحب الترجمة فاطمة بنت عبدالرحمن وعاش معها في تريم، كما كان صاحب الترجمة على صلة وثيقة بالعلامة الإمام عبدالله بن أبي بكر العيدروس، وكان كثير الإعجاب به والتقدير له، وله في مناقبه كتاب سماه «تحفة النفوس في مناقب العيدروس»، وقد أشار صاحب «المشرع الروي في مناقب السادة آل باعلوي» إلى هذه الصلة بين العيدروس والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن فقال ما نصه بالحرف

الواحد: وكان الإمام العارف بالله محمد بن علي صاحب عيديد وتاج العابدين سعد بن علي والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن باوزير مع الاتفاق على جلالة قدرهم وعلو منصبهم ممن لازم صحبته وأخذ عنه طريقته. انتهى.

أما السيد علي بن أبي بكر السكران فقد عدّه من بين مشايخه وذكر إجازته له سنة ٨٤٣هـ.

وقد ذكر الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن في كتابه «تحفة النفوس» أن الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس قدم إلى حورة وهو أي العيدروس إذ ذاك صغير السن - لأن العيدروس ولد سنة ٨١١هـ - فنزل ضيفاً عليه، وقال: إن السيد العيدروس قرأ عليه عدة كتب، وطلب منه عقد الصحبة والمواخاة على طريقة أهل التصوف من السلف فأجابه إلى ذلك.

ابنه عمر:

وقد توفي الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بعد حياة كريمة مليئة بالشرف والفضل وكرم الأخلاق ونشر العلم والإحسان إلى الناس والدعوة إلى الله، وترك عدة أولاد أشهرهم وأجلهم ابنه عمر بن عبدالله الذي سماه والده بهذا الاسم بإشارة من السيد عمر المحضار، ونحن ننقل هنا بتصرف من الترجمة التي أوردتها له الرسالة المشار إليها آنفاً ما يكفي في التعريف به، قالت:

ولد بحورة ونشأ بها وتعلم القرآن مع المعلم محمد باصادق، ثم حفظه وأتقنه على القراءات السبع تحت إرشاد والده وجماعة من الصلحاء والحفاظ، حتى كان يقال له المقرئ، ودرس علوم الشريعة على والده وأعمامه وغيرهم من كبار العلماء العارفين.

فقرأ على والده «المنهاج» للنَّووي، و«التنبيه» لأبي إسحق، و«العمدة» لابن النقيب، و«المحرر» للرافعي، وجملة رسائل في علم التصوف، كما

قرأ على والده أيضاً كتاب «الإحياء» للإمام حجة الإسلام الغزالي، و«عوارف المعارف» للسهروردي، و«قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وقرأ «الإحياء» أيضاً على السيد عبدالرحمن بن أبي بكر العيدروس، وعلى السيد عمر المحضار «منهاج العابدين» للغزالي، و«المقصد الأسنى» في شرح أسماء الله الحسنى، و«كيمياء السعادة» للغزالي أيضاً، وعلى السيد أبي بكر بن عبدالرحمن السقاف «بداية الهداية»، وقرأ «رسالة القشيري» على الشيخ فارس باقيس، وعلى السيد عبدالله بن أبي بكر العيدروس جملة رسائل في علوم الطريقة والحقيقة، وقد أجازه الجميع في العلوم والأذكار وأذنوا له بالتدريس والإفتاء، وكان كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث، وإن كان جل مطالعته في كتب التصوف والرقائق.

وكان الشيخ عمر من أكثر الناس احتمالاً وأشدهم صبراً وأحسنهم صفحاً وأوسعهم صدراً، إن قطع وصل، وإن ظلم عدل، وإن نصح فبالتي هي أحسن، وإن وعظ أبكى وأحزن، وقد ابتلي بكثير من الحساد فصبر على أذاهم، وفي ذلك يقول تلميذه العلامة الشاعر الصوفي الكبير الشيخ عمر بامخرمة في مطلع قصيدة مثبتة في ديوانه المخطوط:

باوزير إن جفى جافى وجا منه أجناف

إلى آخرها

وفي مطلع قصيدة أخرى:

باوزير إن رماك العوف بالجور واحنف

وفي هاتين القصيدتين يشير الشيخ عمر بامخرمة إلى ما لقي الشيخ عمر باوزير من عداوة الحساد وصبره عليهم، وقد عده الشيخ عمر بامخرمة من كبار مشايخه الذين اعتمد عليهم في الطريق إلى الله، وكانوا أربعة من المشهورين بالتقوى والولاية ذكر ثلاثة منهم في إحدى قصائده، وقال عن الرابع:

والـــرابـــع هـــو قـــال لـــي لا تـــظـــهـــر اســـمـــي

يعني بذلك الشيخ عمر بن عبدالله باوزير.

وكان من أبرز أخلاقه الحميدة الكرم والسخاء، فكان يعطي الجزل ويداوم على البذل، وينفق في جميع أوجه البر وخصوصاً في الأوقات الفاضلة كرمضان والأعياد الدينية وأوقات المجاعة والإسنات، ويخص الفقراء والأيتام والأرامل والأرحام بمزيد من العناية، وربما وردت إليه أموال كثيرة فيأتي المساء وليس له منها العشاء.

روى خادمه أحمد بن صالح بازياد قال: جئت أنا ووالدي ذات يوم قاصدين الشيخ عمر في وقت مجاعة، والحبوب غير موجودة، فوجدنا بيته غاصاً بالضيوف والزوار وقلت لوالدي: الأولى أن نعود؛ فإن بيت الشيخ مزدحم - والوقت حان والطعام غير موجود - وبقيت أحسّن لوالدي الرجوع ونحن في أشد الفاقة، فإذا بسيدي عمر يدعونا للدخول ويقول: تعالوا احضروا مجلس المحبين، وماعليكم من باقي الأمور فهي صالحة، فدخلنا عليه وهو يتحدث مع أضيافه فرحاً مستبشراً، فقلت في نفسي: سبحان الله، الشيخ في مثل هذه الأوقات الحرجة يضحك وأنا عالم بحاله، فأنشدنا:

لا يرفع الضيف رأساً في منازلنا إلا إلى ضاحك منا ومبتسم

فقلت: زدني يا سيدي، فقال: أما سمعت قول الشاعر؟ قلت: وماذا قال؟ قال: سأكتب لك في قرطاس حتى لا يسمع أحد، فكتب:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

ولم نلبث كثيراً حتى قدم الأكل وهو من البر والذرة والرز واللحم فأكلنا مع الأضياف حتى شبعوا وشبعنا، ثم قلت للشيخ: ليس المحل جديباً، ولكنه خصيب ووجهك أخصب منه، فقال: الحمد الله الذي تفضل

على عباده بالنعم وأراد منهم الشكر، ثم تكلم حتى بكى وأبكى. انتهى.

وكان الشيخ عمر ذا جاه واسع لدى كثير من قبائل الجهة الحضرمية، وكلمة نافذة عند عاهل حضرموت الكبير في القرن العاشر الهجري السلطان بدر أبي طويرق الكثيري، وقد حدث سنة ٩٣٧هـ أن جملة فخائذ من بني هلال في مدينة هينن ومصنعتها المسماة «فرحة» يقال لهم آل النمر وآل فشر وآل باقار وآل العمري وغيرهم، ومن مذحج ونهد، كانوا ينهبون رعايا السلطان أبي طويرق ويتحرشون به فغزاهم أبو طويرق بجيش كبير قوامه ألف جندي من الخيالة والهجانة والرجالة، ودامت الحرب مدة انتهت بهزيمة أعداء السلطان وانكسارهم، فالتجأوا إلى الشيخ عمر بن عبدالله وطلبوا منه أن يتوسط لدى أبي طويرق في عقد معاهدة بينه وبينهم يعلنون فيها طاعتهم له على أن يبقيهم في محلاتهم ومنطقتهم.

واتصل الشيخ عمر بالسلطان فوافق على إعطائهم الأمان، ولكنه رأى أن بقاءهم مجتمعين في محل واحد خطر يهدد كيان السلطنة الكثيرية، وعرض على الشيخ عمر أن يقنعهم بوجوب التفرق من هينن إلى محلات أخرى فقبلوا، وتم الصلح على ذلك.

وأراد السلطان أبو طويرق أن يكافئ الشيخ عمر على صنيعه هذا ومجهوداته في هذا السبيل مكافأة مادية، فرفض وطلب من السلطان أن يأمر برفع جميع المعشرات الحكومية عنه وأن لا تؤخذ منه زكاة، بل يتولى توزيعها هو بنفسه، وأن تقبل شفاعته هو وأولاده في كل من يحبس في مصنعة هينن فأجابه السلطان إلى ذلك، وكتب له وثيقة بما طلب هذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ أما بعد:

فليعلم الواقف على هذه الرقعة المحررة بأن سيدي ومولاي وملاذي وملجأي وعمادي الشيخ الأجل الفاضل الولي الكامل العالم العامل الشيخ عمر بن الشيخ الفقيه عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالرحمن بن الشيخ الكبير أبي بكر بن محمد بن سالم باوزير مجللاً ومكرماً ومحشماً ومعظماً ومجبراً في جميع أملاكنا بحراً وبراً هو وأولاده وذريته من يومنا هذا إلى يوم الدين، ليس عليهم عشر ولا زكاة ولا شيء من القوانين التي للديوان في طالع ونازل من البحر والبر، ولا يفرق عليهم الفارق ولا يحرسهم الحارس ولا يطوف عليهم الطائف، بل مجبّرين في جميع أملاكنا بحراً وبراً من كل ما هو للديوان من القوانين والقواعد المعتادة، وكذلك لهم الشفع في كل من حبس في مصنعة هينن شفاعتهم غير مردودة، ومن تعدى أو خالف جميع ما ذكر فلا يلوم إلا نفسه، ولا ينال إلا خسره وبخسه، قال ذلك وأملاه وأقر به الفقير إلى الله.».

بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري

والله الشاهد على ما أقول والحسيب. وكتبه بيده.

وفي هذه الوثيقة توقيعات سبعة من الشهود هم: عمر بن عبدالله بامخرمة، وعبدالصمد باكثير، وأحمد بن عبدالله باكثير، وأحمد بن سهل بن إسحق، ومحسون بن عامر بن إسحق، وعبدالله بن أحمد باجسي، وأحمد بن ليث باجابر.

وللشيخ عمر شعر شيق يكتبه باللغة الدارجة القريبة من الفصحى، منه هذه الأبيات من قصيدة طويلة قالها بمناسبة تجمّع والي المخينيق علي بن ظفر وأهل السور والمقاريم والظلفان لمعارضته في عمارة ضمير[١] حورة، وقد انتصر للشيخ عمر أتباعه من نهد، ونشبت معركة حربية بين الفريقين

(١) الضمير في عرف أهل حضرموت السد، يقام في مجرى السيل للتحكم فيه وتحويل الماء إلى الأرض التي يراد سقيها.

انتصر فيها أتباع الشيخ عمر وفي ذلك يقول:

ويوم قمنا في الوادي جاروا علينا في الطغيان
أهل المخينيق وأهل السور بالنهب والسلب باللصان
وخوفوا من سكن حوره جميعهم وأرضوا الشيطان
العدن من بطلهم شارب ونخل حوره بقى عطشان
علي بن ظفر قام وأصحابه رماهم الله بالخذلان

إلى أن قال:

وأولاد عامر معي قاموا بصدق نيه بنو قحطان
ثابت ومسعر وبن مسعر وبن مزعزع أبو الحكمان
وآل الطويل الذي طالوا هم وآل عبدالله الغلمان
وأصحابهم آل بن مدرك والرأس ثابت أبو روضان
وآل عجاج قد سعدوا صبيانهم هم ويا الشبان
قاموا معي صدق بالنيه جميعهم بالهنا فرحان

❖ مؤسس غيل باوزير:

عرضنا فيما سبق لجانب من تاريخ بعض أحفاد الشيخ أبي بكر بن محمد سكان حورة، ونريد أن نذكر في ختام هذا الفصل التاريخي عن آل باوزير موجزاً عن تاريخ أخويه سعيد بن محمد وعمر بن محمد وأبنائهما.

توفي الشيخ سعيد بن محمد بحورة عن سبعة أبناء أشهرهم: محمد بن سعيد جد أهل النقعة الساحلية وقبره في غيل باوزير، وله ولد يدعى أحمد بن محمد وهو أول من قبر بالنقعة، وانتشرت ذريته بها، ولهم فيها صدقات وأوقاف للضيافة ومصالح المسجد الجامع الذي بني على طريقة غريبة لم يحتج معها إلى الاستعانة بالأخشاب في سقفه، وتوجد لديهم مخطوطات قديمة بعضها لا يزال موجوداً حتى الآن.

ومن أشهر أحفاد الشيخ سعيد بن محمد - مولى عرف - العلامة المحسن الكبير الشيخ عبدالرحيم بن عبدالله بن سعيد صاحب ساه، ومؤسس المسجد الجامع بها، وصاحب الصدقات وأوقاف الضيافة العامة في هذه المنطقة، وله ذرية بساه يقال لهم آل الشيخ.

أما عمر بن محمد فهو الذي بنى الغيل الأسفل سنة ٦٥٦هـ، والتي تعرف الآن بغيل عمر ومؤسس المسجد فيها، وقد لزم وصحب الأستاذ الكبير عبدالله باعلوي ابن الفقيه المقدم، ويعتبر من أخص مشايخه، وكانت وفاته بالغيل الأسفل سنة ٧١٣هـ، وهو والد العلامة الإمام الفقيه الشيخ عبدالرحيم بن عمر مؤسس مدينة غيل باوزير المشهورة، والذي كان من أبنائه وأحفاده جماعة كبيرة عرفت بالعلم والفضل والصلاح.

وتقول المصادر التي بين أيدينا: إن الشيخ عبدالرحيم بن عمر قدم إلى الساحل سنة ٧٠٦هـ باحثاً عن المنطقة الصالحة للإقامة له ولعقبه من بعده، فوقع اختياره على البقعة التي تدعى الآن بغيل باوزير، وقد بنى بها أول منزل لسكناه غربي مسجده الجامع المشهور، ثم حفر في الناحية الشمالية للمسجد غير بعيد منه أشهر العيون بها، والتي كانت ولا تزال تروي مساحات واسعة من النخيل والأراضي المزروعة جنوب مدينة الغيل، وتجمعت لديه ثروة مكنته من أن يشتري عقارات وأطياناً واسعة في الخربة والبقرين وغيرها من ضواحي المكلا تصدق بها جميعاً مع أكثر ما يملك في الغيل كوقف دائم تصرف غلته في مصالح المسجد والضيافة وتوزع منه في مناسبات دينية وأعياد خاصة صدقات على الطريقة التي اشترطها هو، وقد أضاف أبناؤه من بعده أوقافاً إلى هذا الوقف حتى أصبح الآن يقدر محصوله بما لا يقل عن خمسة عشر ألف شلن سنوياً.

ولم يكن نشاطه في الناحية الثقافية بأقل من نشاطه في جانب الاقتصاد، فقد بنى مدرسة لأبنائه وأحفاده وغيرهم من طلاب العلم،

واستقدم لها المدرسين الأكفاء، وأرسل أبناءه للاستزادة من العلم، فرحلوا إلى اليمن والحجاز للقاء العلماء والأخذ عنهم حتى عرف كثير من أبنائه وأحفاده بسعة العلم وكثرة الاطلاع وحب الخير والتفاني في منفعة الناس، كما كانوا ألسِنَةَ الدعوة والإرشاد في مناطق الساحل، ورسل السلام والإصلاح بين القبائل، ومثال الكرم وسماحة النفس إذا نزل بهم طارق أو زائر.

والواقع أن كرم الضيافة وحسن استقبال الغرباء من أشهر الصفات الخلقية الفاضلة التي امتاز بها أفراد هذه الأسرة في ساحل حضرموت وداخلها، فقد أَعدُّوا في أكثر المدن والقرى التي يقيمون بها بيوتاً للضيافة يطعم فيها المسافر أياماً معلومة وضمنوا استمرارها بأوقاف تصدقوا بها لهذا الغرض، نذكر منها على سبيل المثال بيوت الضيافة في غيل باوزير والنقعة وريدة الجوهيين ورحبة ابن جنيد وفي وادي عِدِم وساه وحورة ووادي العين وجعيمة وعرف وغيرها.

وانقضت أربعون عاماً منذ وضع الشيخ عبدالرحيم بن عمر حجر الأساس لهذه المدينة، كان فيها القانت العابد إذا جنّ الظلام، والعالم العامل إذا ارتفع النهار، لا يطغى فيها المسجد على المزرعة فيخل بشؤون دنياه، ولا تشغله المزرعة عن المسجد فتفسد عليه أمور دينه، وكان له فيما بين المزرعة والمسجد متسع من الوقت للإشراف على المدرسة ونشر العلم والتدريس بين العامة واستقبال ضيوفه الذين لا ينقطعون، والإصلاح بين القبائل، إلى غير ذلك من أوجه النشاط الاجتماعي التي كان من بينها الدعاية لاستيطان هذه المنطقة والإفراج عن المياه المخزونة في أرضها بحفر العيون والقنوات لاستخدامها في زراعة تربتها الخصبة، وقد دفع لهذا الغرض ابن عمه محمد بن سعيد فحفر هو وأبناؤه عيون النقعة ووديكة وغيرها حتى صارت هذه المنطقة مروجاً خضراء وجناناً عامرة بالنخيل والمزارع.

وهكذا كان للشيخ عبدالرحيم بن عمر في الإرشاد لسان، وفي العلم باع، وفي الاقتصاد يدٌ، وفي العبادة قدم حتى وافاه أجله في منتصف شعبان سنة ٧٤٧هـ، ودفن خارج مسجده بجانب الجدار الشرقي - داخل المسجد الآن - وترك من الأولاد ثلاثة هم: سعيد وعثمان وأحمد ينتمي إليهم كل أفراد آل باوزير السكان في الغيل.

❖ عبدالرحيم صاحب الطرائق:

للشيخ سعيد بن عبدالرحيم ولدان هما: عمر بن سعيد، وهو جد آل بن طاهر الموجودين الآن في الغيل، وعبدالرحيم بن سعيد، ولم يترك عقباً ذكراً، وهو أحد مشاهير رجال التصوّف في القرن الثامن، وله صلة وثيقة بالعلامة السيد عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف ترجمه الشرجي في «طبقاته» فقال:

«الشيخ الكبير عبدالرحيم بن سعيد بن عبدالرحيم بن عمر بن محمد بن سالم باوزير، كان أفضل المشايخ المتأخرين وأكملهم تربية للمريدين، وله في طريق القوم معرفة تامة وكلام مشهور منه قوله: القدرة حاملة للكون والكون بما فيه مسخّر للقدرة والأمر بينهما منتظم، وقال في وصف القوم: إن رأيتَ مكنون سعدهم فيحبهم ويحبونه، وإن رأيت منشور مجدهم فرضي الله عنهم ورضوا عنه، وإن سألت عن مقامهم فعند مليك مقتدر، وإن أردت وصفهم فأولئك أعظم درجة عند الله، وإن أكبرت ما ظهر منهم فما تخفى صدورهم أكبر.

وتوفي ليلة الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٨٢٧هـ، ودفن شرقي قبر جدّه، وله من التصانيف والطرائق يمليها على سبيل الوارد».

وكتاب الطرائق هذا أثر تاريخي يعطينا صورة صحيحة عن مدى ثقافة مؤلفه ومناحي تفكيره ومبلغ تمكنه من اللغة واقتداره على الكتابة، وهي رسالة صغيرة تتألف من سبعة وعشرين فصلاً، يسمى كل فصل منها طريقة

تتحدث في أسلوب صوفي ومصطلحات صوفية عن طريق القوم في الاتصال بالله عز شأنه وإخلاص العبودية له والفناء عن كل ما سواه.

خذ مثلاً افتتاحية الطريقة السابعة عشرة التي يقول فيها:

«الحمدلله الذي ألبس قلوب أوليائه لباس التقوى فتشوقت واستبشرت، وجلا قلوبهم من صدى الغفلة بذكره فانصقلت وتنوّرت، وحجب أسرارهم عن مشاهدة غيره فما حادت ولا تغيّرت، وكشف لبصائرهم عن نور توحيده فطاشت وذهلت واستغرقت وتحيّرت، فأرسل لها في طيّ نسيم القرب أسراراً فاستنشقتها بأنف ذوقها فحنّت للقائه ولعهده القديم تذكرت».

وهذا مثال آخر من الطريقة الثانية:

«يا أرباب الوله في حب معشوق الأرواح، ويا أصحاب الخوف في غاية أمان العارفين، ما بينكم وبين مطلوبكم سوى ارتفاع الصور، وما يحجبكم عنه إلا حجاب الهياكل، فطيروا إليه بأجنحة الغرام، واطلبوه عند الحياة الأبدية، وموتوا عن شهوات إرادتكم ليحييكم به عنده في مقعد صدق».

ومنها:

«البراءة من الحول والقُوَّة إلا به حقيقة التوحيد ومَحْوُ كُلِّ ما يلوح لعين العقل محض التفريد، وإلقاء ما في الوجود من يد الطمع عين التجريد، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون».